أولريش هارمان ، جامعة فرايبورج
(ألمانيا الاتحادية)

موقف المسلمين من التراث الفرعونى
فى
العصور الوسطى

فى سنة ألف ومائتين وسبع وعشرين التقى الملك الكامل محمد الأيوبى عند أهرام الجيزة بمبعوث الأنبرور « يعنى الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى » ، وفاوض الملك الكامل الأيوبى ، حول عقد حلف بين الدولتين وإعادة القدس للمسيحيين . وسمح الملك الكامل لممثل الامبراطور بأن يزور آثار منف والجيزة الفرعونية . ومن الغريب أن يكتشف مبعوث الانبرور كتابة لاتينية على الأهرام فنسخها بنهم وترجمها إلى العربية بمساعدة العالم المحلى أحمد بن شعبان الإبلى .

إنّ هذه الحادثة التى لم تكن معروفة من قبل ، لم تصل إلينا عن طريق مصدر لاتينى معاصر كما يتوقع البعض ، بل عن طريق مصنف عربى . وهو كتاب عنوانه كتاب أنوار علوىّ الأجرام فى الكشف عن أسرار الأهرام تأليف نسّابة الأشراف بمصر ، المحدّث الصعيدى جمال الدين الإدريسى الذى ولد بالقرب من دندره بصعيد مصر سنة ألف ومائة وثلاث وسبعين وتوفى بالقاهرة سنة ألف ومائتين وإحدى وخمسين* .

ولو أخذنا بعين الاعتبار أنّ المجال فُتح هنا واسعاً لآراء غير مسلم ، من غير « أهل القبله » كما يقول الإدريسى ، فالمجال قد يكون أوسع ، بالأحرى ، فيما يهم موقف المسلمين المصريين المعاصرين للتراث الفرعونى . وهذا صحيح فى هذا الكتاب وفى كل الكتب الجغرافية والتاريخية الأخرى المكتوبة فى العصور الوسطى باللغات العربية والفارسية والعثمانية فى موضوع آثار مصر القديمة وتاريخ بنائها .

لقد أيقن المسلمون فى العصور الوسطى أن الصلة التاريخية التى تربط مصر الفرعونية بمصر الإسلامية قد قطعت . ولذلك سيطر على صورة مصر القديمة عند المسلمين التابعة من قصص الأنبياء والقرآن الكريم شخصية فرعون موسى ، الذى يمثل جوهر الظلم والطغيان فى الإسلام . وكانت آثار التقاليد الفرعونية وقت فتح العرب لمصر قد أمّحت تماماً وضاع معها ، وإلى غير

* تحقيق أولريش هارمان ، بيروت ١٩٨٩ (سلسلة الدروس والنصوص يصدرها المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية ببيروت ، رقم ٣٨)

رجعة ، معنى الرموز القديمة . فقد تبنت الآثار الفرعونية معانى جديدة إسلامية مثل سجن يوسف أو بيت زليخه أو أهرام يوسف ، وأصبحت مصر الفرعونية فى الوقت نفسه بلاد العجائب و« بابل السحرة » كما يقول العالم العراقى ابن النديم الوراق فى كتابه المشهور « الفهرست » فى القرن العاشر الميلادى . فالنقوش الهيروغليفية أصبحت تعرف فى المصادر العربية « بالقلم البرباوى » يعنى كتابة المعابد اشتقاقا من كلمة Perpe بربا القبطية — أو « قلم الطير » — لكثرة الأشكال التى تتخذ صور الطيور — أو « القلم الكاهنى » بمعنى الكتابة الهيراطيقية .

كما أثارت ألغاز التماثيل الفرعونية وإتقان صناعتها القوة المخيلة فى ذهن الإنسان فى العصور الوسطى قبل عهد شامبليون ، سواء أكان من المسلمين وغير المسلمين ، مصريين وغير مصريين . وأدى عدم فهم التراث الفرعونى بمعناه الحقيقى إلى الشعور بالخوف والحياء تجاه بقايا مصر القديمة الضخمة . إذ ساد لدى الناس أن روحانيات مطيعة تحرس كنوز السحرة القدامى المحفوظة فى الأهرام والمصطبات . وعدنا نسمع فى العهد الفاطمى ، على سبيل المثال ، عن رضوان الفراش الذى يدخل إلى قلب الهرم الكبير ويموت ، وتفسر هذه المأساة كما يقول المؤلف « جزاء من ينتهك حرمة الملوك فى منازلهم » .

وكانت مصر القديمة (فى رأى العلماء فى العصور الوسطى الإسلامية) موطن صنائع شاذة ، مثل الطلسمات والسحر وعلمى الكاف والميم وعلم الكاف هو علم الكيمياء وعلم الميم هو علم المطالب يعنى الدفائن والكنوز المخفية فى أرض مصر هذا وورد فى كتاب البلدان للجاحظ أن أسماء عشرين من العجائب الثلاثين توجد فى مصر وأولها تتمثل فى أهرام مصر .

ويذكر مؤلفا الإدريسى (ص ١٢/١٣) أن السعى لمعاينة العجائب ومشاهدة الغرائب شىء طبيعى . فالإمام عبد الله بن مبارك المروزى الذى توفى سنة سبع مائة وسبع وتسعين) مثلاً « كان حيث ما سمع بأعجوبة سعى إليها لكى يقف بالمشاهدة عليها » ، والأهرام أبرز عجائب الدنيا . هنا لك حكاية

الحاج المغربي الذي يرجع إلى وطنه بدون أن زار أهرام مصر ، ويلومه شيخه على ذلك لوماً غليظاً ويعاتبه قائلاً : « وهل كان بينك وبين الإخبار عنها (يعني الأهرام) والشهادة عندي بما شاهدته منها ، سوى ركضة راكب أو دفعة قارب » . ويعود الحاج الغفلان على الفور إلى مصر (ص ١٥/٥ — ٦) . ليستدرك غلطة . فيمكن بمعنى عام أن نقول هنا بأن طلب العجائب يبدو واجباً على المسلم المتدين . وتتبنى الآثار الفرعونية أهمية إسلامية أولا كعجيبة بارزة ، وثانياً — وسوف نرجع إلى تلك الملاحظة — كعبرة مجسمة قوة الله خلال كل الأجيال . أين بانى الأهرام ؟ نادوا كلهم « والله ، وما بقي غير ما ترى من آثارهم ونقراً من أخبارهم ، فجل بقايا القوم أحجار ورسوم تخبرنا عنهم وآثار ، ولا بد وأيم الله أن تنطمس الآثار وتندرس الأحجار » (ص ٨/١٥٢ — ١٠) .

ولا ينحصر اهتمام هؤلاء المؤلفين الجغرافي في الظواهر الإسطورية والعجيبة المرتبطة بالتراث المعماري الفرعوني . الإدريسي على الأقل يعطينا تفاصيل هندسية قيمة عن الأهرام ، عن مقاييسها الدقيقة ، عن سطوحها وارتفاعها ، عن كيفية أعاليها ، عن نوع الكتابات المختلفة المنقوشة عليها ، كما عاينه هو نفسه أو كما سمع من المحدثين الثقات . ولقد ذكرت الكتابات اللاتينية التي اكتشفها ممثل الإمبراطور الألماني توماس دي آكرا هنالك .

ولا ننسه عن الشريف محمد بن الحلبي ، أحد رواة الإدريسي الموثوق بهم . فهو يذكر كتابة بالخط الكوفي على أحد الأهرام ونصه هو « يوحد فلان ... » ويعزو الإدريسي ذلك إلى واحد من الصحابة الواردين إلى مصر في طريقهم إلى الصعيد والمغرب الأقصى . وسأرجع إلى ذلك الموضوع فيما يلو . ومحمد بن الحلبي (وهو مولع بالآثار) جمع كتابات فرعونية كثيرة على الأهرام ووصل في بحثه لهذه الوثائق مثلاً إلى قمة هرم أبو صير .

وربما توصف آثار الجيزة من الداخل أيضا ، يعني حيثما أمكن دخولها . ونضطلع بأنباء المحاولات المختلفة التي قام بها الحكام المسلمون في العصور

الوسطى لاقتحام الأهرام . وأول من حاول ذلك كان الخليفة العباسى المأمون ، أول خليفة الذى زار مصر . ولقد دخلت حكاية دخوله الفاشل كتاب ألف ليلة وليلة كما هو المعروف . وجمع الإدريسى أيضا معلومات عن البيت المكعب أو البيت المربع فى الهرم الكبير ، وعن المسارب والحيضان والنواويس والخفافيش بداخل الهرم . ويذكر الإدريسى الحفلة التى نظمها سلطانه الملك الكامل بمناسبة زيارة أخيه صاحب جزيرة ابن عمر إلى مصر (ص ١/٤٥ ــ ٥) : « فضربت بهما ــ يعنى أهرام الجيزة ــ الخيام ، وتيقظت لما زينت به تلك الأرض من محاسنهما العيون النيام ، وانثال نحوها للتنزه خواص الناس مشاة وركبان ، فطاروا إليهما برافات ووحدانا . وتسنم منهم ذروة الهرم الأكبر أربعة عشر إنسان ، فخص كل واحد منهم بحباء من الذهب وأولى إحسان ، وتقدم الأمر الكاملى بأن يتخذ للبيت المكعب المتوصل إليه من جانبى الزلاقة مراق ، حتى لا يعسر الصعود إليه على راق » .

وبالإضافة إلى الأهرام وأبى الهول بجوارها ، فلتقى أيضا فى الكتب المتخصصة بهذا الموضوع معلومات مفيدة عن آثار فرعونية أخرى ، وإن كان ليس بنفس التوسع . فلنذكر على سبيل المثال حنية اللازورد والبيت الأخضر بسنف والأهرام الأخرى فى كل من السقارة والدهشور والميدوم وواحة الداخلة .

ولا ينقص ذكر الآثار القديمة بصعيد مصر ، خصوصاً برانى ــ يعنى هياكل ــ دندرة وأخميم وأيضا الأقصر البحرية كما يسمى الإدريسى هيكل الكرنك . وسنسمع عن زيارة الإدريسى بصحبة والده فى الأقصر وعن غضبهما ومرارتهما بالنسبة للوقاحة والفظاظة التى نفذها ــ باسم الإسلام وكراهية الإسلام ضد تصوير الإنسان والحيوانات ــ هؤلاء الجهلة بمعاولهم ومبارديهم وقطاعاتهم الذين يشوهون ويخربون النقوش الفرعونية على حيطان الآثار . ومن أهم آثار مصر تمثالا ممنون بمنطقة الأقصر المدعوة بالعربية نواويس شامة وطامة . ولكننا نعثر أيضا على معلومات عن تماثيل طفيفة مثل المسلة غير المتكاملة فى محاجر أسوان .

وإن النقوش الفرعونية تثير تطلع المتأملين الخاص . وقد ذكرنا الرموز الهيروغليفية وتسمياتها المتفرقة عند المؤرخين المسلمين فى العصر الوسيط . وتذكر وتشرح بعض عناصر النقش والبناء الفرعونية ولو أحياناً بشكل اعتباطى : ومنها الشمس المجنحة الواردة على عتبات الهياكل العليا . وإن أحداً من ثقات الإدريسى يعتقد أن يستطيع استنباط تاريخ بناء الآثار الفرعونية ، أى البرابى والأهرامات ، من هذه الصورة (ص ٢/١٠٥) : « بنيت — يعنى الأهرام والهياكل — بتاريخ حلول النسر الطائر برأس السرطان . ويدل على ذلك كون جميع البرابى بالديار المصرية مصور على أبوابها فى العتبة الفوقانية صورة نسر ناشر جناحيه تنبيئا بالإزميل على نحو ما تكتب الأمم تاريخ بناء المدن فى عتب أبوابها نقراً فى الحجر » .

ويلتقط الإدريسى هذه النقطة ليحاول أن يحسب متى حدث ذلك — يعنى بناء الأهرام والبرابى — فعلا وهو يعتمد على موقع نجم النسر الطائر من باقى النجوم زمن تاليف كتابه الخاص سنة ستمائة وثلاث وعشرين هجرية ، أى سنة ألف ومائتين وست وعشرين ميلادية . وأما النتيجة التى يتوصل إليها فهى عشرون ألف سنة من قبل .

ومما يكتب عنه الجغرافيون والمؤرخون المسلمون باحترام وتقدير خاصين هو مهارة المصريين القدامى فى فن العمارة والبناء . فنقرأ مثلاً : « ومن عجائبها الظاهرة لأبصار متأمليها .. تضامُّ ملتقيات أحجارها على عظم أجرامها وضخامة أجسامها بحيث لا تجد الشعرة متخللاً بين بعضها وبعض لإحكام النحت والرصف المتجاوزين فى الإحكام والإتقان حد الوصف » (ص ٥/١٤٣ — ٧) . فيتساءل المؤلف كيف كانت مثل هذه الأعمال التى تفوق القوة البشرية . « فكيف تلاقت ملتقياتها مع ثقل الاعتماد الحجرى ولم تتثلم ولم تتأثر جنباتها بالقراصات ولم تتهشم ؟ وهل رفعوها إلى قلة جبل ذلك البقاع وغاية ما بناه البانون على وجه الأرض فى الأرتفاع كما يرفع سائر الأثقال بالمياخيل والحبال ... أم كانت لهم قراقل مطلسمة تطير الأحجار إلى أماكنها

كما يقال ؟ » (ص ٩/١٤٣ ـــ ١٣) . وينبغي أن يترك الإدريسي الجواب على هذا السؤال مفتوحاً .

فلننتقل الآن إلى موضوع آخر وهو انعكاس تاريخ مصر الفرعونية في المصادر العربية المتأخرة بعد الحوادث نفسها بمئات السنوات . ثمت هنا ثلاثة تقاليد تاريخية : الأولى قطعة وجيزة من لائحة الفراعنة التي دونها الكاهن مانيتو من القرن الثاني قبل الميلاد . يذكر البيروني هذه القائمة بصورة مختصرة ومحرفة ويأخذها عنه المقريزي في كتابه الخطط المشهور ، مبتدئاً بالأسرة العشرين الفرعونية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

إلى جانب هذا النزر اليسير من مصدر فرعوني أصلي هناك الصيغتان الإسلاميتان لتاريخ مصر القديمة . وتعود الأولى منهما إلى بعض المحدثين من القرن الثاني أو الثالث الهجري مثل ابن لهيعة وعثمان بن صالح وهي تبدأ بتاريخ مصر بعد الطوفان . وتتوافق هذه الصيغة بشكل عام مع أخبار التوراة عما حدث في أرض مصر . وإنه تسيطر على هذه الصيغة الحوادث المربوطة بإبراهيم الخليل ، والعمالقة ، ويوسف ، وموسى ، ونخت نصر . إلا أن هذا النص الذي رواه لأول مرة عبد الرحمن بن عبد الحكم ، المتوفى سنة ثمانٍ مائة وإحدى وسبعين ميلادية ، في كتابه فتوح مصر وأخبارها ، يشتمل على أسماء فراعنة يشك في تاريخيتهم مثل الوليد بن دومغ وابنه الريان .

أما الرواية الإسلامية الثانية عن مصر الفرعونية فهي حتى أروع بكثير . والمقصود هنا كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والعامر بالماء والعمران المنسوب خطأً إلى المسعودي . وفي كتاب التاريخ الخيالي هذا تنسج قصص المصريين القدماء بروعة وأبهة . فيبدو للقارىء وكأنه في خضم عالم سحري عجيب وخلف الأبواب المسحورة يقف حراس غامضون محفوفون بالأسرار في هيئة البشر أو الحيوان لحراسة كنوز لا تحصى ولا تثمن . وتشع المسلات الذهبية بلمعان وهاج حول البرك المقدسة . وفي أوعية معدنية وخشبية حجرية ، رائعة في إتقان صناعتها ، تتراكم الحلى الثمينة والبخور

الفواح . وبالاختصار ، فهذا الكتاب عبارة عن تمجيد للسحر بفروعه وأنواعه المختلفة .

وإن تسمية مايكل كوك من جامعة برنستن لهذا الكتاب « بالتاريخ الهرمسي » لتسمية صائبة حقاً . فانه مصيب أيضا باعتباره كتاب أخبار الزمان هذا مزوراً مصطنعاً نشأ حوالى سنة ألف الميلادية فى الأندلس . وهناك الكثير مما يشير إلى أن مبدع هذا الكتاب الغريب هو الوصيفى أو ابن وصيف شاه الغامض ، وهو شخصية يتعذر تحديدها تاريخيا . ويشير بعض المؤلفين إلى هذا الكتاب على شكل قطع مقتبسة فى وصفهم لتاريخ مصر الفرعونية ، ابتداءً من القرن الحادى عشر . وأذكر كتاب الاستبصار لمؤلف أندلسى مجهول وأمية بن أبى الصلت صاحب الرسالة المصرية وصاعد بن صاعد الأندلسى صاحب طبقات الأمم والنويرى وابن أيبك الدوادارى . ويبدو أن هذه الصيغة المصطنعة للتاريخ الفرعونى كانت شعبية جداً ما بين القراء والسامعين فى العصر الوسيط وأيضا فى مصر الحديثة . وتكفى الإشارة إلى كتاب سندباد مصرى لحسين فوزى . فإنه يقدم الفراعنة الأسطوريين كما يصفهم الوصيفى فى كتابه أخبار الزمان .

ولا ننسى هنا خبيراً آخر عن تاريخ الوصيفى ، وهو خال ولدى مؤلفنا الإدريسى ، وهو الأسعد بن مماتى المشهور . كان ابن مماتى ، وهو مصنف كتاب قوانين الدواوين ، رئيس الديوان الأيوبى خلال فترة طويلة . وكانت المحل والفرصة لاقتباساته من كتاب الوصيفى هى التذكرة التى دونها على عشرين ورقة بمناسبة محاولة الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين الفاشلة والمغرورة لهدم الهرم الثالث بالجيزة ، أى هرم ميكيرينوس .

وماذا عن دور التماثيل والآثار الفرعونية فى الحياة المصرية فى العصور الوسطى كما نستنبطها من المصادر المعاصرة ، كما ذكرت فى افتتاح هذه المحاضرة كان قد ضاع الفهم عن الحقائق الفرعونية فى العصر الإسلامى . وقد تضاءلت ظل الفراعنة على الأراضى المصرية ، وإن نكتشف آثار الاستمرارية فى البيئة الشعبية المصرية أحياناً .

يعلمنا مؤرخان من العصر المملوكى مثلا ، الصفدى وابن الفرات ، أن العامة زارت أبا الهول فى أوقات المحن وبحثوا عن المساعدة من هذا الصنم المتحجر . وعلى جانب ذلك لعبت البقايا الفرعونية دوراً عدداً طيلة العهد الإسلامى قبل نشوء علم المصريات فى بداية القرن التاسع عشر :

أولا : هى هدف الهدم والتخريب والتشويه .

ثانيا : هى ، كما ظن الشعب ، مستودع الكنوز والدفائن .

ثالثا : هى ، مثل ما دورها اليوم ، محل الاحتفال والتنزه والعطلة — يعنى الفنطزية — فى أوقات الفراغ .

ومن الجدير بالملاحظة هو أنه منذ زمن الخليفة العباسى المأمون على الأقل شاع الاعتقاد بأن الآثار الفرعونية الضخمة والعجيبة هى مخبأ لكنوز كبيرة وغنية ، مع أن ابن خلدون (المتوفى سنة ألف وأربع مائة وست) ذكر فى مقدمته الشهيرة بسخرية بأن أولئك الذين يستثمرون أموالا فى البحث والتنقيب عن هذه المطالب لا يسعهم على الأغلب أن يسترجعوا حتى ما صرفوه من المال فى هذه المبادرة . لقد سبق ذكر المحاولات المتعددة لتدمير الأبنية الفرعونية . ويهمنا هنا قول الملك سوريد ، باني الأهرام كما يقال فى معظم المصادر العربية المعاصرة ، بأن هذه البنايات العجيبة لا يمكن هدمها فى ست مائة سنة حين ما بناها ذلك الفرعون فى ست سنوات فحسب ، « والهدم أيسر من البناء » . ولما اضطر الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر يوسف أن يكف عن مبادرته ضد أهرام جيزة سأل الطبيب والفيلسوف عبد اللطيف البغدادى ، وهو شاهد لهذا الهجوم الفاشل والمغرور ، مقدم الحجارين المشغولين فى هذا المشروع : « لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردوا حجراً — أى من الهرم — إلى مكانه وهندامه ، أكنتم على ذلك قادرين ؟ فأقسموا بالله على عجزهم عن ذلك بأضعاف المال » (ص ٨/٤١ — ١٠) . والسلطان الملك العزيز نفسه استخدم الأهرام أيضاً كمضمار الاحتفالات والمسابقات والمبارزات العسكرية . ونقرأ فى كتاب أنوار علوى الأجرام للإدريسى الجمل التالية :

« خيم عليها ـ يعنى الأهرام ـ فى اثنى عشر ألف فارس ، من كل بطل للحرب ممارس ، وصعدها بمحضر منه رجل من الجند ولم يخلع خفيه عن رجلين وبيده قوس موترة ، ونزل سالما ، فوصله بجائزة سنية وخلع عليه وأحسن إليه » . ولقد كان يتسلق الأهرام ، منذ زمان القائد العباسى مؤنس المظفر المعتضدى ، تحدياً من قبل الحكام . وهنالك الرياضيون الشجعان والمهرة الذين تجاسروا على تسنم ذروة الهرم الأكبر . وكان الوزير الفاطمى المبذر ، الأفضل بن بدر الجمالى يشعل نيران على قمة هرم خوفو ، فتشاهد عن بعد شائع ، وذلك فيما تسمى « بليالى الوقود » ـ أى ليالى منتصف رجب وشعبان المحترمين . ونعثر على حكايات مماثلة فى كل القرون التالية عبر العصرين المملوكى والعثمانى .

ويستحيل علينا أن نتحقق بالضبط من مدى الاهتمام الصادق بشؤون مصر القديمة عند المسلمين فى العصر الوسيط . فإن موقف المسلمين الثقافى والعقائدى تجاه الفترة الفرعونية فى تاريخ مصر والعالم متضارب :

فهناك الصورة الموجودة فى القرآن الكريم عن فرعون موسى وما يمثله الفراعنة من حكم متعجرف ظالم ، وهناك أيضا الرفض القاطع لكل المبادىء والعادات الدينية فى مصر القديمة كما تعكسها النقوش والصور الفرعونية (مثل التناسخ والرجعة وإحياء الموتى فى الأرض) ، وهناك ثالثاً تكره الإسلام العام لتصوير الكائنات الحية . ولكن ثمت جهة أخرى . فهنالك الاحترام والرهبة أمام آثار الماضى كعبر تحذرنا من الغطرسة والتكبر والعجب وأنها تجسم فناء الإنجازات البشرية مهما بعدها . ونقرأ فى كل الأدب اللاتينى فى العصور الوسطى وأيضا فى مصادرنا العربية السؤال المتضمن جوابه : Ubi sunt qui ante nos in munclo fuere ، يعنى أين الذين كانوا قبلنا فى الأرض . ويطرح الإدريسى هذا السؤال فى كل من الباب الأول والآخر لكتابه عن الأهرام وهو يشير إلى القرآن الكريم ـ ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى

الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ (سورة غافر ٢١) .

وبين التبجيل الشعبي الوثني للمعابد الفرعونية كالأهرام وأبي الهول من جانب ، والتعصب الأعمى الديني ضد كل أثر من آثار الجاهلية من جانب ، كان الاهتمام بايجاد طريق وسط يسمح بالحفاظ على التركة القديمة دون أن يستفز المسلمون المؤمنون أو أن يجرح شعورهم الديني بأي صورة كانت .

ولقد وصل الإدريسي ، وهو محدث خبير بفن الجرح والتعديل ، إلى هذا الحل الوسط . ومن المحتمل أن جهده الخاص في هذه التسوية بين الغايتين نابع من كونه مسلماً ورعاً من جهة ، وابن وطنه ، أي منطقة الآثار الفرعونية بالصعيد ، من جهة أخرى . إنه يأسف كثيراً على ورود ذكر سد مأرب والبئر المعطلة وبعض الآثار الأخرى في القرآن المجيد ، حين ما لم تذكر الأهرام وبراي مصر هناك أيضا . ويحاول الإدريسي التعبير عن ذلك الإهمال بالحجة أن القرآن الكريم قد أنزل للعرب في المقام الأول وليس للمصريين .

وفي البحث عن حجج قاطعة اضافية تبرر وحتى تقتضي حماية الآثار المصرية العتيقة يعثر الإدريسي على الصحابة وهم ، كما يقول ابن عبد السلام المنوفي في القرن السادس عشر في رسالته عن النيل ، « أشد الناس حرصاً على إزالة المنكر » . فإن سلوك الصحابة أصبح نموذجاً لحياة كل مؤمن . ولكن هؤلاء الصحابة الذين أنعم الله عليهم بمصاحبة رسول الله واحتفائهم على سنته الكريمة لم يعترضوا على الإقامة بأرض الآثار الفرعونية وحتى دفنهم بظل الأهرام ، رموز مصر الوثنية . وأسمحوا لي أن أستشهد ببعض الأسطر من كتاب الإدريسي التي تلخص هذه النظرية الإسلامية المتسامحة تجاه التراث المعماري الفرعوني (ص ٤٥ ـ ٤٦) .

« وأذكر فيما أذكر من أخبار الزمان ، وحديث حوادث الحدثان . أنني أجتزت مع أبي رحمه الله ببربا الأقصر البحرية ، متوجهين نحو شامة وطامة من

النواحى القبلية . ويد التخريب لم يأت بعد من تلك البربا على ما أبقته الليالى والأيام من رسومها، ولم تمح من ألواح جدرانها خطوط رقومها . وهى من أكبر البرابى ساحةً وأوسعها ، وأعلاها جدراناً وأرفعها ، فما راعنى بها غير إعوال حجارها تحت معاول الحجارين ، وقد كادت صورها المهولة لهول ما نزل بها تبدى لنا الحنين والأنين . فقال : أنظر يابنى لما بنته الفراعنة ، كيف عهده الصفاعنه . وما آسى ولا آسف إلا على فساد ما يتقله المستبصرون عنها ويعتبر به المعتبرون منها . ولو كان لى من الأمر شيء ، ما مكنت هؤلاء الجهلة من خرابها . وأى حكمة تذهب من الأرض بذهابها ! ولقد وطئت خيل الصحابة رضى الله عنهم — لما توجهوا إلى غزو النوبة بعد فتح مصر — هذه الأرض ، وجالت فى هذه البلاد ، ورأت أعين القوم هذه الأبنية ، وما امتدت أيديهم لها بالفساد ، بل تركوها عبرة لمعتبر مستبصر ، وتذكرة لخير مستخبر » . ويمكن أن نضيف هنا أن بعض المؤلفين يدعون أن ليس فلسطين فقط بل أيضا مصر كانت قد سميت بالأرض المقدسة ، لكونها ملجأ للأنبياء مثل يوسف والمسيح .

فى الواقع يصعب علينا اليوم أن نستعيد رد فعل المجتمع المصرى الإسلامى ، إن كان مؤيداً أم معارضاً بالنسبة للحل الوسط الذى أقترحه الإدريسى بامتداده على موقف الصحابة تلقاء التراث المصرى القديم . ومثل هذا الحل الوسط السديد لم يكتب له النجاح والاستتباب إلا بعد الحصول على المعلومات والاكتشافات الحديثة فى عهد المصريات فى القرنين التاسع عشر والعشرين . فها هو رافع رفاعة بدوى الطهطاوى ، المصلح المصرى المشهور ، يضع فى مختصره للتاريخ الفرعونى اقتباسات من القرآن الكريم وقصص الأنبياء عن الفراعنة جنباً إلى جنب مع ترجمات عن الفرنسية لكتب متخصصة حديثة بقلم علماء المصريات دون أن يربط بينهما .

وعندما أحتد النقاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بخصوص توافق هاتين الخلفيتين المتناقضتين للتاريخ الفرعونى ، أى الخلفية

الإسلامية والخلفية الواردة من علماء المصريات الجدد كانت العلمانية قد قطعت شوطاً لا بأس به . وبدا وكأن حقيقة فرعون موسى الشرير التاريخية لم تعد مهمة إلى درجة جديرة بإرهاق العقول فى التفكير فيها . فلقد ترك المجال واسعاً رحباً أمام العلوم الحديثة ، أى علم الآثار وعلم المصريات . والاكتشافات التى ولدتها هذه العلوم — وهاهنا أكتفى بذكر العثور على قبر توت عنخ آمون — أعادت إلى مصر الشعور واليقين بعمقها التاريخى المتأصل التليد . وهذه المعرفة بأقدمية مصر الثقافية ظهرت معينة ومريحة فى صراع مصر اليؤوس ضد الاحتلال الأوروبى ، وبالتالى ضيع التساؤل المحض عن حقيقة صورة مصر (كما تنشأ فى المصادر الإسلامية) أهميتها الملحة .